

الحالة الذهنية لمسلمي الجزائر من 1830م إلى 1847م¹ The Mentality of Algerian Muslims from 1830 to 1847

مارسيل إيميريت² Marcel Emérit

ترجمة: أ.د. / عبد الحميد بورايو

كلية اللغة العربية واللغات الشرقية، جامعة الجزائر 2

البريد الإلكتروني: bourayou1950@gmail.com

الملخص:

يتناول المقال الحالة الذهنية والاجتماعية لمسلمي الجزائر خلال العقود الأولى للاحتلال الفرنسي، في ظل غياب شبه تام لمصادر تعبر عن رأيهم المباشر، مقابل وفرة المصادر العسكرية والإدارية الفرنسية. ويظهر النص أن هذا الصمت لم يكن دليلاً على الرضا، بل نتيجة القمع، ومنع التظاهر، وغياب الصحافة العربية، وسياسات الإخضاع. تكشف تقارير الجنرالات عن بؤس واسع، ومجاعات متكررة، وانتزاع الأراضي، وانتهاك المقدسات، ما عمق مشاعر الإحباط والحقد والرغبة في الثأر. ورغم فترات رخاء نسبي، لم يتحقق اندماج حقيقي، إذ بقي الجزائريون ينظرون إلى الاحتلال كقوة غريبة ومهددة لوجودهم. كما يبرز المقال أن الثورات لم تكن تطرفاً دينياً بقدر ما كانت حركات وطنية واجتماعية، غذتها سياسات الاستيطان، والتمييز القانوني، والأزمات الاقتصادية الكبرى، خاصة مجاعة 1867م-1870م.

الكلمات المفتاحية: الاحتلال الفرنسي، الذهنية الجماعية، مسلمو الجزائر، نزاع الملكية، الثورات

الجزائرية المبكرة.

Abstract:

This article examines the mental and social condition of Algerian Muslims during the early decades of the French occupation, in a context marked by the near-total absence of sources expressing their own views, in contrast to the abundance of French military and administrative records. The study demonstrates that this silence did not signify consent, but rather resulted from repression, the prohibition of public protest, the lack of an Arabic press, and policies of subjugation. Reports by French generals reveal widespread misery, recurrent famines, land dispossession, and violations of religious sanctities, all of which deepened feelings of frustration, resentment, and a desire for revenge. Despite periods of relative prosperity, genuine integration never occurred, as Algerians continued to perceive the

¹- العنوان الأصلي: EMÉRIT, M., «L'ÉTAT D'ESPRIT DES MUSULMANS D'ALGÉRIE DE 1847 A 1870», in

Revue d'histoire moderne et contemporain, 1961, 8-2, pp.103-120.

²- مؤرخ فرنسي، درّس في جامعات بوخارست برومانيا وليل بفرنسا. شغل منصب مدير مصلحة التاريخ في المؤسسة

العسكرية الفرنسية في الجزائر. عُيّن في كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1938م؛ ظل يدرس بها إلى غاية سنة 1962م.

له العديد من الكتابات حول تاريخ الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي، كان من أنصار فكرة التعايش السلمي والعدل بين

جميع الأعراق في جزائر الحقبة الاستعمارية. من بين مؤلفاته: "الجزائر في عهد الأمير عبد القادر" و"تاريخ الجزائر

والمغرب: دراسات ووثائق".

occupation as a foreign power threatening their very existence. The article further argues that uprisings were less a form of religious extremism than national and social movements, fueled by settler colonial policies, legal discrimination, and major economic crises, particularly the famine of 1867–1870.

Keywords: French occupation; collective mentality; Algerian Muslims; land dispossession; early Algerian uprisings.

بعد القتال الذي خاضه الجزائريون ضدّ الغزاة الفرنسيين من 1830م إلى 1847م لم نحصل بصفة جيدة على معلومات حول الرأي العام في البلد، خارج نطاق وسط المعمرين الأوروبيين. لهؤلاء الأخيرين صحف، قدّمت عرائض، نشرت صحائف، على أيّ حال عبّروا عن مشاعرهم. على العكس من ذلك، عاش المسلمون محاطين بسياج من الصمت لم يسمح بنفاذ صوتهم. لم تكن هناك في هذا العهد منشورات عربيّة، فيما عدا أوراق رسميّة قرأها فقط أعوان الإدارة الفرنسيّة. فعرائض القرى لا تصل عموماً إلى الدوائر الحكوميّة، أو أنّها بإيحاء من السلطة العسكريّة. لا نجد من بينها رسائل خاصّة. فالتظاهرات محصورة، ويمكن فقط تقدير سطوة القبائل في أوقات الثورات.

في هذه الظروف، ليس بين أيدينا ما يوضّح المسألة، سوى المصادر الفرنسيّة: رسائل أو تقارير القادة العسكريين، التي تشرح أصل حركات التمرد أو تحدّر الحكومة ضدّ مخالفات يمكنها أن تتسبّب في تمرّدات جديدة. مع ذلك فإن مصدر المعلومات هذا، التجزيئي جدّاً، لم يُستغلّ بعد من قبل المؤرّخين. سوف نسعى أن نحصل على بعض المعلومات التي تقدمها لنا.

ما تلى الغزو:

لم يبرز ذهنٌ وقاد يؤكّد في عهد الغزو عدم إمكانيّة تمازج الجزائريين والفرنسيين. فذلك الذي كان ينتمي لعقيدة القديس سيمون (Le saint-simonien) أُرْبَان Urbain، والذي أصبح مترجماً إلى اللغة العربيّة بعد إقامة طويلة في مصر. كتب سنة 1837م: «منذ خمس سنوات من قدومي إلى إفريقيا، لم ألتق بعربيٍّ أحبّ فرنسا. نحن محبوبون في مصر أكثر من هنا. حقّاً أحتار لما أريد أن أستشرف من أيّة ناحية يمكن العمل على الامتزاج بأوروبا³». كان ذلك هو نفس انطباع غوستاف دي إيشتهال Gustaved'Eichthal الأول لما وصل إلى مدينة الجزائر: «ليس فقط تواجد الغرب والشرق معا ما

³ - 7721. de l'arsenal, Ms. 1837, Bibl. Urbain au Père Enfantin, Oran, 10 sept

يدهشني، بل ما هو في غاية الاستبداد في مجتمعاتنا، الجيش النظامي، في وجود ما هو على العكس من ذلك من حرية أكثر في المجتمع الشرقي، حيث يوجد جيش المناصرين. ونحن نلمس هذه الأوجه، كيف يمكن التفاهم؟⁴».

بيجو، وهو يغادر الجزائر في سنة 1847م، لم يُخفِ كَوْنُ ما قام به يظلّ هشا. نبّه الحكومة إلى المحاذير التي بإمكانها أن توقض الغرائز القتالية عند شعب ذي عزّة وشجاعة، والذي اضطرّ إلى الخضوع بسبب عدم قدرته على التسلّح. لم ينس العبارات القاسية الصادرة عن هاشم Hachem، في سنة 1841م: «هذه القارة هي بلاد العرب. لستم سوى ضيوف عابرين حتى وإن بقيتم 300 سنة مثل الأتراك، لا بدّ من أن تخرجوا⁵...». في إعلانهِ الموجّه للمعمّرين، في 30 ماي 1847م، أسدى لهم نصائحه الأخيرة بالحرز: «... الأكثر جرأة من بينكم، وبدون شك الأكثر تهوّرًا، يطالبون بالاندماج الكامل مع فرنسا، أي في جميع المؤسسات المدنية والسياسية. يطالبون ذلك، بدون التفكير في من تكونون وفي المكانة التي تشغلونها على خارطة البلاد. لستم سوى قسما واحدا من أربعين من السكان الذين علينا أن نجعلهم يستقرّون لكي نقوم بالغزو ونسيطر على العرب، الذين هم أكثر عدد منكم بأربعين مرّة⁶..». وفي رسالته إلى الجنرال شارون، في 5 جويلية 1849م: «ليس هناك من وسيلة أخرى للبقاء سوى لمّا تخنقون الثورة بمجرد قيامها؛ إنّها الوسيلة الوحيدة للمحافظة على هذه القوة المعنوية التي مازالت تُخضعُ بها الشعوب. إنّ لم تأبها بها ستجدون في وقت قصير في مواجهتكم تمرّدا شاملا سيقضي على ما قمتم به فيما يبدو من استعمار⁷...».

حينذاك كانت هناك ثورات قليلة في ظلّ الجمهورية الثانية. سبب ذلك البؤس الشديد الذي كان يعاني منه السكان بعد سبع عشرة سنة من القتال، والذي في الستّ سنوات الأخيرة أخذ فيه طابع « حرب شاملة»، ترك البلاد في جزئها الكبير مدمّرة وأصبح الشعب يعيش أقسى أنواع الإحباط⁸. استمرّ سوء المحصول في سنة 1849م، والأوبئة التي تصيب الحيوان، وغزوات الجراد في إنهاك الجزائر. عن أورليانفيل Orléanville [الشلف حاليًا] كتب الجنرال دومارتينبيري de Martimprey في 1 مارس 1851م: « يموت السكان تماما من الجوع.... صار السكّان من آكلات العشب. انجرّ عن ذلك نسبة وفاة مهولة. سواء بالنسبة للشيوخ أو الأطفال الرّضع لا نجد سوى وجوها مُنْهَكَة⁹».

⁴ -Gustave d'Eichthal au Père Enfantin, Alger, 10 mai 1838, ibid., Ms. 7721 (54).

⁵ -Lyes Hachem à Bugeaud, 20 juin 1841, Arch, du ministère de la Guerre, Vincennes, Algérie, n° 74.

⁶ -Par l'épée et par la charrue (écrits et discours de Bugeaud, publiés par le général Paul Azan), p. 297.

⁷ -Ibid., p. 332.

⁸ -Pélissier à Bugeaud, Mostaganem, 25 janvier 1847 ; lettre de Bugeaud au ministre, Alger, 3 avril 1847 ; le duc

Guerre, Alg., n° 118. min. d'Aumale au ministre, Alger, 30 octobre 1947 ; etc., Arch

⁹ -Martimprey au gouverneur général, Orléansville, 1er mars 1851, Archives nationales, F80 936; Ibid., rapport de Ténès.

يعترف الضابط المكلف بإدارة شؤون العرب في تنس: «نعم ينزف قلبي لما أذكر بأن رجالا، ونساء، وأطفالا يموتون من الجوع. آخرون، مدفوعون بالحاجة، لهم الوقت للوصول إلى مكتب العرب، فيمنح لهم خبز، يتسبب شرهم في هلاكهم. لأنّ معداتهم الواهنة لا يمكنها أن تحتل مثل هذا الغذاء لما يُتناول بكميّة كبيرة¹⁰». يذكر لنا الجنرال بيليسي بأنّ السكّان العرب «أصابهم العوز والفقر. مرّ موسمان متتابعان بمحصول سيئ مسبقان بجميع أسباب الفقر بفعل حرب الاحتلال، ما قضى تقريبا على هذه القبائل. لقد انتشرت الكوليرا، مصحوبة بالبرد والمطر، أصاب كلّ ذلك سكّانا شبه عراة، اضطرت في جزء كبير منها إلى أكل الجذور الجافّة، طحنتها الظروف... ليس هناك عربيّ يملك خيمة وعائلة إلّا ويأسف على الماضي، يقلقه النظر إلى المستقبل. كان أقلّ أسي في لحظة الخضوع للاحتلال، لأنّه وُعد حينئذ بالاستفادة من الأرض التي وُلدَ عليها والتي دفن فيها أسلافه. اليوم ترين الشكوك بفعل الغموض الذي يسود ومازال كذلك لمدة طويلة قواعد تسوية الملكيّة، غياب مبادئ واضحة، تحلّ في الحال جميع الحالات الخاصّة في البلد، هذه الموجة من القرى المسيحيّة التي ترحف من البحر وتصد كلّ يوم مشكّلة تهديدا، هذا الاقتطاع الماحق للأرض من قبل هذه القبائل الجديدة من الغزاة، هذه الحدود الضيقة المفروضة والتي تضطرّ العربيّ إلى أن يغيّر كلّ عاداته، الوعي بكسله وفقره في مواجهة الأشغال والمصاريف التي تقرضها عليه هذه الأساليب الجديدة للعيش، أخيرا القناعة التي يستمدّها العربيّ من طبيعته الانتقاميّة والحقودة التي لن يغيرها المحتلّ في الأيام المقبلة، فتبقى كما هي عليه اليوم، أي أن تظلّ الفكرة التي لا تُقرّبُه أبدا من المحتلّ، فلن تشجّعه باعتباره مواطنا، حسبما يُقال ذلك، بدون بذل جهد خيالي يكون طبعاً محسوباً، فيظلّ هناك شكل من التفكير عند هؤلاء السكّان بمثابة سرطان من القلق يثير فيه الغضب فسيستمرّ من جيل إلى جيل، إلّا إذا ما حدث تغيير مناسب وجذريّ في إجراءات إدارية تُتخذ في صالح هؤلاء السكّان ولعلّها تكون في صالح احتلالنا. حتى ذلك الوقت يجب ألاّ نتوقّع تطوّراً في هذا المجال. فهو ليس فقط في انحسار، بل يبتعد أكثر فأكثر، فيمتلئ القلب حقدا ورغبة في الثأر من الاسم الفرنسي¹¹».

عذرا على طول هذه الاستشهادات. يبدو لي أنه من الضروريّ أن نترك جنرالات الاحتلال يتحدثون أكثر، والذين ليس من صالحهم أن يسودوا اللوحة التي يرسمونها. يعلم العرب بأنهم لن يستطيعوا طرد الفرنسيين. يرغبون فقط في أن يُؤفّي الفرنسيون بما وعدوا به: احترام أملاك ودين المغلوبين. لأنّ الملكيّة سطا عليها المعمّرون. لم يكن هناك نقص في الأرض في البداية: استولت الدولة على تلك الأراضي التي تركتها الحرب بدون مُلاك. لما أصبحت غير كافية لجأت إلى الاستحواذ على أرض القبائل. في سنة 1866م تأكّد بأنّ الفرنسيين كانوا قد حصلوا على 5.08 هكتار للفرد الواحد، بينما لم يكن في حياة المسلمين سوى 4.58 هكتار للواحد. ولا بدّ من الإشارة بأنّ القسم الأكبر من الأوروبيين هم من المدن،

¹⁰ Ibid., et rapports d'Orléansville, 11 mars 1851.

¹¹ 334. F80. Rapport Pélissier, commandant la province d'Oran, 9 février 1850, arch, nat.,.

بينما كلّ العرب يعيشون من الأراضي الفلاحية التي يستغلونها. من ناحية أخرى تمّ منح أجود الأراضي للمعمرين¹².

كان هناك أمل في أن يكون هناك تعاون مثمر بين العنصرين. لم يحدث شيء من ذلك. لا يرفض العرب العمل عند الفرنسيين، لكنهم ينكرون أفضليتهم. فهم يهزؤون من الطريقة التي يعتمدونها معمرنا في زراعة الأرض، وخاصة منهم "الباريسيون" الذين تنقصهم الخبرة في هذا الأمر ولا يمكنهم أن يجنوا شيئاً من الأراضي المُتَنَازِلِ لهُم عنها إلا إذا عملوا بنصائح الملاك المسلمين القدامى. كتب الضابط بيليبي Pélissier قائد إقليم وهران: «إنّ التأثير على العرب عن طريق إنشاء المُسْتَعْمَرَاتِ الفلاحية يمكن أن يُتَبَرَّحَ حتى اليوم بدون نتيجة تقريبا: يمكن حتى القول بأنّه تسبّب في خلق أعداء لنا...»¹³.

المسلمون أيضا غير راضين تماما وهم يُعَايِنُونَ الاستخفاف الذي تلقاه عقائدهم. لا يتم احترام موتاهم. فالعظام البشرية التي عُثِرَ عليها في مقابر مدينة الجزائر استُعملت في وقت ما لصنع الفحم الحيواني بغرض استخدامه في مصانع السكر¹⁴. يتم غلق المساجد أو تُمنَحُ ليتعبد فيها الكاثوليك. كان القضاة ورجال الإفتاء قد كتبوا في سنة 1848م، لما علموا بالأضرار التي أصابت الجامع الجديد: «... لما احتلّت الحكومة الفرنسية مدينة الجزائر، وعدتنا بأن تُحترَمَ مساجدنا وغيرها. هذا لم يمنع من عمليات هدم وبيع لها. لم يبق من خمسة عشر (15) مسجدا كبيرا كانت موجودة حينذاك، إلا أربعة (4) والجامع المشار إليه أعلاه، وهو الأجمل، هو واحد منها. إذا ما انتزعتموه منا، سيكون ذلك أمرا خطيرا جدّا، يؤدي إلى فقدان الصبر، ويتسبّب في ألم شديد وسيكون الضرر كبيرا. سوف ينتج عن هذه المعاملة تشتت المسلمين عبر البحار والبراري. من الأوفق أن تمتنعوا عن الإضرار بنا. والسلام»¹⁵.

مما يستدعي الفضول ملاحظة أنه في فرنسا، حيث جميع الليبيراليين يثورون على "المستبدين" يخرقون حق الشعوب لكي لا يتصرفون في مصيرهم بأنفسهم، سواء كانوا بولونيين، إيطاليين أو مجريين، لم يفكر أحد في أنّ هذا المبدأ النبيل المستمد من الفلسفة السياسية للعقد الاجتماعي وللثورة الفرنسية يمكن أن يُطبَّقَ على سكان شمال إفريقيا. هل ذلك يعود لبقايا ذهنية متحدرة من الحروب الصليبية؟ أم هو البروباغندا الرسمية التي نجحت في أن تثبت في الأذهان فكرة أنّ المسلمين هم برايرة ليسوا أهلا للحرية؟ لما تتم قراءة أسرار باريس للبييراليّ أوجين سو Eugène Sue، الذي يُعتبر اشتراكيا، تبدو لنا باعثة على الدهشة. فالناس الذين هم في أسفل السلم الاجتماعي في العاصمة، الذين يدّعي الروائي معرفتهم، والذين كانوا مدفوعين للجريمة من قبل مجتمع فاقد للروح، يمتلكون أحيانا طبائع خيرة. أراد أوجين سو إعادة النظر في تقييم البؤساء الذين أنقذوا ورفعوا الملك المخلوع فلور دوماري Fleur de Marie. لكن، مادام لا

¹² - Arch., nat., F80 . 524.

¹³ - Arch., nat., F80 . 184g, Arch. Pélissier au gouverneur général, Oran, 8 nov.

¹⁴ - Le gouvernement a interdit ce trafic dès qu'il en a eu connaissance, Arch., nat., 28 AP 1.

¹⁵ - Arch., nat., F80 337, Alger, 20 nov. 1838.

يبدو أنه من الممكن أن يستأصل منهم النزوع للعنف، بعث بهم إلى الجزائر، حيث بإمكانهم فلاحه بسايتينهم والقضاء على العرب الذين يحومون حول مراكز الاستعمار. هكذا، بدون أن يتخلّوا عن عاداتهم في استعمال السكّين، فيصبحون مواطنين صالحين. لا يرد على ذهن الكاتب بأن هؤلاء العرب قد يكونون هم المالكين القدامى للأرض، المنهوبة من قبل الغزاة، وأنه بإمكانهم بطريقة مشروعة أن يرغبوا في وطن وفي حياة أكثر كرامة.

نفس القدر من اللامبالاة عند بلزاك Balzac. في رواية ابنة العم بات La cousine Bette يتمّ استدعاء محتال لكي يتوب عمّا ارتكب من دناءات فيذهب إلى الجزائر حيث ينجح بسرعة في تحقيق مآربه عن طريق المزايدة في إنجاز عمليات نهب.

هؤلاء العرب الذين هم في غالبيتهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة في عهد كان فيه 45% من الفرنسيين أميين تماما¹⁶، لا يُنظر إليهم حتى باعتبارهم خليقين بالاستفادة من منجزنا المعرفي. «يكبر الأطفال في جهل مطبق»، هذا ما كتبه الجنرال دو مارتيمبري¹⁷ de Martimprey. تمّ إنشاء مدرسة تلمسان من أجل تكوين إطارات من الأهالي. في سنة 1850م لا نعثر إلا على أستاذين و34 تلميذ. بسبب نقص المعلمين لم يعد أحد يتردد على مدارس الإقليم الوهراني إلا 13942، من بينهم 777 من الصف الثانوي، وهو أمر باعث على قلق السلطة العسكرية لما تلاحظ بأن السكان يغرقون في الجهل.

في فترة الرخاء (1851م-1858م):

بمراعاة ذلك، لابدّ من الاعتراف بأنه، إثر الرفع من ثمن القمح، عرفت الجزائر، في عهد راندون Randon، ست سنوات من الرخاء. فإمكانيات عمليات التصدير ذات العوائد المرتفعة أنعشت الإنتاج. حينئذ تم إدراك بأن العرب والقبائل Kabyles لا تنقصهم الطاقة للعمل والقدرة على التكيف مع الطرق الجديدة. يعرض لكريتيل Lacretelle هذه الإنجازات في مذكرة موثقة بصفة جيّدة¹⁸. يبيّن بأن العربيّ يعمل بنصائح مهندسينا الزراعيين، بأنه شرع في زراعة البطاطا، والقطن، والدخان. قدم الأمبراطور مبلغا قدره 20000 فرنك للزراعة المعتبرة بها جيّدا لمزارع قطن، مُنحت في سنة 1864م لقايد Caid من قاصمة صاحب أرض مزروعة مساحتها 45 هكتار. إن تمت حماية المسلم من الرّبي، إذا ما مُنحت له قُروض بفائدة 20% أو 25% فقط، يصبح من الممكن عن طريق إنشاء أراض فلاحية عصرية، وتشجيع مجموعات المنتجين، تصنيع الجزائر، بفتح مناصب إدارية لموظفين عرب. فالشابّ بن داود، اجتاز مسابقة سانسير Saint-Cyr وأصبح ضابطا في قناسة إفريقيا. ويضيف لكريتيل Lacretelle هذه الملاحظة: « الحالة الأكثر تقدّما للصناعة، للثقافة وللطبّاع وللحدايات في البلدين الجارين، تونس والمغرب الأقصى، تدلّ بوضوح بأن الشعب العربيّ قابل للتربية ».

¹⁶ Cf. notre article dans la Revue d'histoire moderne et contemporaine, juill.-sept. 199 sq- iQ5i, p.

¹⁷ Guerre, Alg., n° 161. min. Martimprey à Randon, Oran, 8 mars 1858, Arch.

¹⁸ Guerre, H 175. min. 1861, Arch. Sidi-bel-Abbès, 17 sept.

الجنرال ديسفو Desvaux، قائد قطاع قسنطينة، يوضّح بدوره التقدّم الحثيث المحقّق من قِبَل القبائل Kabyles: «بيّنت لي جولة مؤخّرا في منطقة قبائل سطيف التقدّم الكبير الذي حققه هذا العرق: استخدام طرق الفلاحة الفرنسيّة، عمليات تخزين التبن، زراعة البطاطا، أشجار الفاكهة التي عندنا، الخ. نظام طرق سير البغال الذي أحدثتموه ينمو بسرعة؛ هناك أكثر من 2500 كلم من الطرق لم تكلف شيئا للدولة، تسمح بقطع هذه البلاد الجبلية بكل سهولة والوصول إلى القمم الأكثر انحدار¹⁹».

هل يستحقّ المعمّرون كلّ هذه التجديدات؟ تنكر مكاتب إدارة شؤون العرب ذلك. يذكر الأوروبيون أنهم يستأجرون أراضي من الأهالي: «ينتج عن ذلك أنه، فيما عدا بعض الوقائع المعزولة، تنقص هؤلاء السلطة المثاليّة التي تجعلهم يقرّرون قبول الطرق الزراعيّة الأكثر نجاعة²⁰». ثم إنّ طرقنا ليست على الدوام قابلة للتطبيق على الزراعة في الجزائر. «اشترى قايد Caïd عربية فرنسيّة، لم يتمكن من استعمالها بصفة منتظمة، لكونها ثقيلة جدّا بحيث لا يقدر ثوران على جرّها²¹».

هل الجزائريّون، لما يتمّ إنقاذهم من البؤس، ينزعون إلى الارتباط بفرنسا؟ عاينت السلطة العسكريّة مؤشّرات تدلّ على إمكانيّة تعاون جيّد بما أنّ تجنيد القناصة تمّ بدون صعوبة تُذكر. قاتل هؤلاء العسكريّون ببسالة في إيطاليا وفي القرم. وبناء عليه فيبدو أنهم قبلوا هذه المهنة التي لم يكن هناك ما هو أفضل منها. في سنة 1859م، لما تمّ تجميع فيلق من القناصة من أجل نقله إلى إيطاليا، قام هؤلاء الجنود بتحريض من أبناء ملّتهم، بمتابعة وضرب اليهود الذين أغرّتهم أعياد الفصح للخروج بأعداد كبيرة خارج محلاتهم²². لقد فكّرت الحكومة منذ 1855م في إنشاء جيش جزائريّ مكوّن من 70000 رجل لكي يحلّ محلّ الجيش الفرنسيّ في حاميات البلاد. صرّح الجنرالات حينذاك بأنّه من عدم التبصّر تشكيل قوة من الأهالي تكون هائلة يُسند لها قسط كبير في الدفاع عن الجزائر وحمايتها²³. يجب تكوين بعض الفياق فقط، تُستدعى للمشاركة في بعثات بعيدة. فوج من القناصة يكون حامية في فرنسا. هؤلاء الجنود، الذين تمّ تجنيدهم جميعا طوعا، هم من الفئات الأكثر فقرا من بين السكّان. كان قد أراد الجنرال مارتيمبراي Martimprey تعويضهم بمستدعين للخدمة الإلزاميّة، تعيّنهم الجماعة: بعد أن يقضوا سنة تكوين في الجزائر، يتمّ بعدها نقلهم إلى فرنسا لأداء السنوات الأربعة الأخرى من الخدمة ويتمّ إدماجهم شيئا فشيئا في أفواج الصفّ. هكذا، كما يقول، «يتمّ تحضير هؤلاء الرجال، الذين لا يمكن إعادتهم إلى المدرسة. سيكون مقابل ذلك أصدقاء لفرنسا، قد تعرّفوا على عظمتها وقوّتها فيعرفون أهل ملّتهم بها».

لكنه في الحقيقة فكّر في أن يجعل منهم رهائن. كان مارتيمبراي Martimprey يعرف في الواقع القوّة القتاليّة للعرب والذين، لما يُستبعدون عن المراكز الكبرى ويطبقون قرب حدود ما، يدافعون عن جبالهم. لقد

¹⁹ -Guerre, H 180. min. Le général Desvaux au maréchal Randon, Constantine, 20 juillet 1863, arch

²⁰ - , F80, 1713. nat. Rapport des bureaux arabes, cercle de Constantine, Ier trimestre 1860, arch

²¹ - Ibid., cercle d'Ain Beida.

²² -Guerre, H 165. min. Mac-Mahon au ministre de la Guerre, Alger, 23 avril 1859, Arch

²³ -Guerre, H 183. min. Martimprey au ministre, Alger, 3 juin 1864, Arch

كلّفت العمليات التي قادها ضدّ بني سناسن في سنة 1859م جيشنا 1800 قتيل و2800 جريح أو مريض. قاوم في نفس الوقت كلّ من الماحية، والأنقاد وبني غريب بقوة جيوش الجنوب²⁴.

سعى مارتمبراي Martimprey، وهو يحاربهم، لكي يفهمهم. في سنة 1863م، وهو عام هادئ، كتب: «بطريقة خفية، تستمر، إن لم تتزايد، روح عدائية عميقة، والنوايا الحسنة للأمبراطور بخصوص الأهالي لم تفعل سوى إثارة أحقاد معمرينا اتجاههم. وعليه فمن الأحسن القضاء التام على سكّان تم إخضاعهم²⁵!». «

III. أثناء أزمة 1858م-1864م:

كان النزول الكارثي لسعر الحبوب ابتداء من سنة 1856م وراء ما حصل من ضيق ومن اشتداد الصراع. في ظلّ وزارة الجزائر، من سنة 1858م إلى سنة 1860م، كان المعمّرون يريدون ممارسة سياسة اندماج ويسعون لتحويل التشريع لصالحهم. نعرف ردّ فعل العرب في مواجهة مساعي الفرنسية. أنشأ الأمير نابليون، وزير الجزائر والمستعمرات، مجلسا عموميا في كلّ واحد من الأقاليم الثلاثة، مع مستشارين يعيّنهم الأمبراطور. يضمّ مجلس الجزائر 18 عضوا أوروبيا، ألحق بهم اثنان من الأعيان المسلمين فقط. من بين الانشغالات الأولى للرئيس اقتراح أمنية أن يتجنّس العرب ليصبحوا فرنسيين. حاول أحد المسلمين عضوي المجلس إفهامه ما يعترض ذلك من عقبات. صاح الرئيس: «لا تريد فرنسا أن يأتي يوم فينتقدها العرب لكونها لم تدعهم لوليمة الحرية». ردّ عليه العربيّ عضو المجلس: «حريّتكم لا نريدها. لما غلبتمونا، قلتم لنا: "سنحترم شريعتكم، عاداتكم، دينكم؛ نحميكم، سنكون أصدقاء لكم، ستكونون أخيرا أحرارا" لكن ما الذي حصل لنا؟ منذ أن عرفناكم، منذ أن رغبتكم في أن تُشركونا في جميع هذه النعم، شاهدنا نساءنا، بناتنا تتركنا لتُعمر دور الفساد عندكم. نازعتمونا في ثرواتنا وأصبحنا لا نعرف شيئا سوى الورقة الحاملة للدمغة. اليوم يتسبّب الرّبي، هذا العشق الفاحش للذهب، في كثير من الضحايا من بين قبائلنا؛ مسعاكم يهدّد بابتلاعنا. قوانيننا، عاداتنا موافقة لديننا، وتريدون أن ترفضوا علينا قوانينكم، التي تتهجم على ما هو أعلى عندنا، معتقداتنا! لا، نحن لسنا ناضجين لقبول حضارتكم، وتريدون منا أن نسعد بهذه الحرية التي تعظمونها كثيرا. امنحونا الوقت اللازم لفهمها. انتظروا أن نطلبها نحن²⁶» حتّى وإن كان الاقتراح قد انتخب عليه بـ 16 صوت مقابل 4، ظلّ حبرا على ورق.

عادة لا يمتلك العرب الوسائل لإيصال مشاعرهم، لكن بإمكاننا أن نعتمد على تقرير طويل موقّع من قبيل الجنرال يوسف Yusuf. أقول "موقّع" لأنه يبدو لي من المستحيل أن يكون هذا المملوك القديم، الذي يفتر إلى الثقافة، يكتب حينئذ بلغة فرنسية ممتازة، مستشهدا بمونتيسكيو Montesquieu، عارفا بمذاهب

²⁴ -168. 1959, ibid., H. Rapport du Iernov

²⁵ -175. Guerre, H. min. Martimprey au général Deligny, commandant la division d'Oran, Alger, 9 octobre 1863, Arch

²⁶ -175. Guerre, H 172. min. Mémoire du général de Rochefort, Arch

الفوريين fourieriste. أشك في أن المترجم أوربان Urbain، الذي أوحى بسياسة المملكة العربية، أن يكون هو الكاتب الحقيقي للمذكرة.

يبين يوسف الوضعية الحقيقية للجزائر في سنة 1860م. تم إفقار سكان المدن المسلمين، سكان الأرياف في قبضة من استدانوا منهم البذور والمرابين. في القطاع المدني يعتبرون أنفسهم مهوورين من طرف رجال الأعمال والمحامين. إذا أردنا أن نضم هؤلاء العرب إلينا لابد من تنوير الأوروبيين، ذوي الموقف المعادي للأهالي. «لقد أيقض هذا المشاعر الدينية، استدعى ذكريات الغزو، التي ظلت نائمة... لابد على الحكومة أن تحدّد سياستها تجاه الأهالي. هل لابد من النظر إليهم بصفة نهائية على أنهم رعايا فرنسا، أم نفهمهم؟» بالأحرى باتّباع مثال الإسكندر الأكبر Alexandre Le grand فمدّ أيدينا لرعايانا الجدد. «على الأوروبيين إذن ان يعرفوا: بأنه ليس هناك مغلوبين على أمرهم؛ بأنه ليس هناك من مختلّ ومن تم احتلالهم؛ بأن البلد ليست ملكا لهم بحق الأكثر قوّة كثر من لدن جنودنا؛ بأنه ليس هناك مسيحيين يقفون ضدّ مسلمين متعصبين، غير مؤمنين، يستحسن ابتزازهم؛ بأنه ليس هناك عرق أدنى ويستحق الاستغلال. لقد غاب صواب الرؤية عند المعمّرين الأوروبيين، فبدون شك، قريبا ستهوي بهم نظرتهم إلى اعتبار الأهالي مثل سكان أمريكا الشماليّة فيعاملونهم وكأنهم العبيد السود في أراضيهم الفلاحية... كل ذلك يستدعي فرنسا لأن تصنع من هذا الشعب العربي ابنا بارًا والذي يردّ لها جميلها من خلال ما ينتجه من ثروة، وما يوفره لها من جنود يتمتّعون بالشجاعة، من بحّارة ذوي خبرة، وما يبديه من إخلاص صادق يوم الخطر، يعوّض جميع التضحيات التي بذلها الوطن الأمّ. فالشعب الجزائريّ سليل أعراق رفيعة، ذكية، صلبة، شجاعة، يتحمّس بسهولة ويمكنه عند الضرورة أن يعترف بالجميل²⁷...».

فهمت ذلك الإدارة العسكريّة، بينما المعمّرون لم يخفوا «أطماعهم وطموحاتهم». يقول العرب: «لا يدفع الأوروبيون الضرائب على مزروعاتهم. لهذا فهم متقدّمون على الأهالي في أملاكهم الزراعيّة؛ لهم مصادر أكثر لرؤوس الأموال. مُنحت لهم على الدوام أجود الأراضي لتكون مراكز سكانيّة لهم؛ إذ يتم عند الضرورة افتكاك أملاك العرب إذا ما كانت الأرض التي يفلحونها تظهر مناسبة للأوروبيين. حدث أكثر من ذلك: يتمّ إعفاء الأهالي الذين يفلحون أراضي الأملاك الأوروبيّة، ولعلمهم هم مالكوها القدماء. إنّه تشجيع للأهالي لكي يهيئوا أنفسهم ويعتادوا بأن لا يكونوا سوى مزارعين أو عبيدا مُسخّرين عند الأوروبيين...» تُخصّص أموال الدعم للبلديات الأوروبيّة. يتمّ التنازل عن الغابات لأثرياء رأسماليّين، بينما الأهالي محرومين من جزء من هذه المراعي تُفرض عليهم تعسّفا الضرائب من قبل حراس الغابات. يتمّ استغلال المناجم من طرف الأوروبيين؛ فلا يكون العامل من الأهالي سوى بروليتاريّا.

يخشى الرجل من الأهالي لما يشهد فتح طريق في أرضه. يخاف أن يطمع فيها أوروبّيّ، فيحصل عليها بمساعدة الإدارة. فالمجالس العامة، التي لا يُمثّل فيها العرب تقريبا، تستعمل الأموال التي في

حوزتها في صالح الاستيطان الأوروبي: «فحص مداولات السنوات الفارطة يبين بأنه لم يُقدّم اقتراح واحد يخص الميزانية من أجل تحسين مصير 750000 ساكن من الأهالي الموجودين في أراضي المنطقة العسكرية، وأنّ جميع المقترحات كان هدفها إرضاء احتياجات 70000 ساكن أوروبي في أراضي المنطقة المدنية». ينتهي يوسف إلى خلاصة مفادها أنّ الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالجزائر هي احتلال البلاد عن طريق الأهالي. «هذا لا يعني أن يُهمل الاحتلال عن طريق الأوروبيين؛ الأمر ليس هكذا طبعا. لكن بخصوص هذا الموضوع لابدّ من التذكير بأن نضع نصب أعيننا ترك الأوروبيين ليصبحوا السادة الإقطاعيين للأرض الجزائرية، فيكونون فقط الملاك وليس المزارعين...» «لابدّ من استمداد رفاهيّة الغالب من رفاهيّة المغلوب...».

في منطقة قسنطينة سُجِّلَ أنّ السبب الأساسي في عدم رضى العرب هو القلق من أن يتمّ تجريدهم من الأرض من طرف الاحتلال. «يخشى العرب كثيرا من رؤية الأرض تُنزع منهم، إذ أن العمليات الأخيرة لتأجير أراضي العزل عن طريق المناقصات العموميّة، كانت قد جرت في جوّ محموم...»²⁸.

من أجل استشراف الثورات، اتخذت الحكومة، في عهد سياسة الإدماج، تدابير صارمة: «¹ مادامت الجزائر في كليتها قد خضعت لفرنسا، يجب ألاّ يُعتبر المشوّشون الذين ينادون بالثورة كأعداء، بل يمكن أن يتمّ بشأنهم الاستناد على القانون الذي يحكم السكان؛ ² سلطات القادة العسكريين اتجاّهم تكون محكومة بالقانون. لابدّ من أن تأخذ العدالة الرسمية مجراها. لمّا، من أجل تزايد التمرد، أو من أجل السيطرة على المتمرّدين الأساسيين، تعنّد القيادة العسكريّة أنّ من حقّها أن تعدّ بإنقاذ حياة شخص ما، أو أيّ شرط خصوصي، هذا الظرف يجب أن لا يعرقل عمل العدالة...»²⁹.

تمّ الاستمرار في ممارسة "الحرب الشاملة" التي قام بها الجنرال بيجو Bugeaud. أعلن الجنرال ديسفو Desvaux، في قسنطينة، النصر: «البارحة تمّ حرق قرى أولاد نافع؛ تم قطع أشجار زيتونهم. نفس العمليّة تمت صبيحة اليوم عند أولاد برش وأولاد بن شعبانة...»³⁰. دعا إلى عمليّات نهب مختلفة لقبائل دائرة جيجلي وأجبرهم على التعاون معه، «بالرغم من أنه من المعتاد أنّ هذه القبائل لم تكن تقاتل بعضها أبدا...»³¹. تمّ بيع أسلاب الغزو بأسعار بخسة لمُضَارِبِينَ³². لا يخفي الكولونيل لاباسيت Lapasset ما حقّقه من غزو، مع أنه ممن أوحوا بسياسة المملكة العربيّة: «لمّا انطلقت في هذه الصبيحة على الساعة الخامسة، بقيت 12 ساعة في الخارج، فقمّت بحرق العمامرة وأولاد صابر وقضيت عليهم. قتلنا خمسة رجال وسلبنا منهم حوالي 1500 رأس ماشية. لمّا أصبح السكّان في متناولي، أحلتهم على الجنرال روز

²⁸ - Guerre, H 175. min. Le préfet Iapaine à Randon (lettre privées.d.), Arch

²⁹ - Le ministre de l'Algérie au général commandant supérieur des troupes de l'Algérie, Paris, 17 février 1859, Arch

Guerre, H 164. min. Arch

³⁰ - Guerre, H 171. min. à Alger, Harka, 6 juillet 1860, Arch. Rapport de Desvaux au général C.S.T.T.M

³¹ - Ibid., 2 juillet 1860.

³² - A propos de la vente du produit d'unerazzia à Italia Maghnia, on voit que les acheteurs sont, des spahis, des chaouchs, des caïds, des cantiniers et des négociants. Guerre, H 162. min. Arch

Rose، وبعد بضعة ساعات سمعتُ طلقات المدفعية والرشق بالرصاص. لاشكَّ أنه قام بعمل رائع...³³» قام يوسف بطريقته بتعذيب سكان الجنوب. قطع عنهم المياه؛ أنهكهم باستمرار حالات الطوارئ، والتي كانت تفرض عليهم تنقلات من مكان إلى آخر يوميًا، وتستنفذ مصادره³⁴.

تمثل حرائق الغابات الفرصة لفرض الغرامات المهلكة، ما كان يثير أعمال تمرد: على سبيل المثال تمرد قبائل أولاد كبير في سنة 1858م³⁵. بدون جدوى بين شانزي النتائج الوخيمة لأعمال القمع الجماعية: «مبدأ سيئ يؤدي إلى نتائج وخيمة. لم أكن أريد فرض غرامات بدون تبصر على الأبرياء تمامًا كمرتكبي الجرائم، ولم تتأخر الأحداث لكي تبرهن بأنه كان الحق معي...³⁶» فأعمال التمرد كانت على الدوام حركات وطنية، لكن يتم تقديمها وكأنها فتن تطرف. فتمرد الأوراس في سنة 1859م حرّض عليه المرابط سي صدوق بلحاج، مقدّم طريقة سيدي عبدالرحمن، الذي جعل لقرار التمرد وقد دامت الحملة خلال ستة أشهر³⁷.

أكثر دلالة على ذلك تمرد الحضنة في سنة 1860م، التي قُدمت على أنها من عمل مرابط أولاد سيدي رخاب، الذي يقدم نفسه على أنه خليفة «مولى الساعة»، الذي تهيأ ليأتي من الغرب لكي يطرد المسيحيين. كانت المعارك ضارية، وأدرك الفرنسيون بأن من كانوا يعولون على إعانتهم غير مضموني الولاء. كان لابد من أسر نساء وأطفال أولاد اعمر لكي يرضخ سكان الجبال فيسلمون زعماء التمرد. التقرير المفصل الذي قدّمه بين Pein حول هذه المسألة متشائم: «يجب ألا نكون واهمين. لم نتمكن من التقدم بخطوة واحدة في التأثير على الأهالي. كل ما فعلناه لكي يرتبطوا بنا لم يصل إلى هدفه. الزراعة المتطورة، الأمن وسهولة التواصل، وفرة المنتجات، زيادة الثروة العمومية، هاهي بعض الامتيازات التي منحناها لهم. يستشعرونها جيدًا، غير أنّ جميع هذه الاعتبارات تمحي أمام شعور الحقد الذي يحملونه بفعل فكرة أنّ أرض الإسلام وطنتها قدم المسيحي³⁸.

يتحدث الجنرال ديسفو Desvaux، في مذكرة سرية موجهة للجنرال القائد، عن الأسباب الخفية لهذا التمرد، في الواقع كان مهياً بصفة جيدة، حيث كان هناك جيش منظم، مُقسّم إلى فيالق، لكل منها رايته. « منح الفصيلة الجنيقية 20000 هكتار من الأراضي تسبّب في كثير من القلق للقبائل المجاورة. لما تمّ انتزاع أراضي من العوامر كانوا يفلحونها منذ قرون، أصبحوا يستأجرونها من الأوروبيين التي تمّ منحها لهم. شعر بالخوف الريغيون وأهل الحضنة من التضييق عليهم...³⁹ » تمّ إعادة تنظيم العدالة الإسلامية

³³ -Guerre, H 183. min. Lapasset à Martimprey, Riou, 5 juin 1864, Arch

³⁴ -Ibid., Martimprey au ministre, Alger, 7 juin 1864.

³⁵ -Guerre, H 163. min. 1858, Arch. au ministre de l'Algérie, Alger, le 16 nov. Le général C.S.T.T.M

³⁶ -1858. Ibid., Chanzy, directeur des Affaires arabes, rapport au ministre de l'Algérie, Constantine, 16 nov

³⁷ -min. Le général Castu, commandant la division de Constantine, au général C.S.T.A., 22 janvier 1859, Arch

Guerre, H 164. C. M. H. R. 1961 —

³⁸ -Rapport du colonel Pein, 3 avril 1860, ibid., H 170.

³⁹ -IyC général Desvaux, commandant la division de Constantine, au général C.S.T.T.M., Q.G., 6 avril 1860,

Guerre H 170. min. Arch

بتسرّع ووقع الضغط على الكثير من القضاة: فساقوا وغيّ شعب نحو المشاعر الدينية العميقة وجعلوهم يُعادون فرنسا.

كان لتمرد الحضنة تأثيراته على جرجرة. هناك أيضا تحتج القبائل Kabyles لأنه تمّ استبعاد أربعين عائلة من الزمول بدون أن يُعوضوا. يسحق حراس الغابات سكان الجبال بالغرامات والذين هم يجهلون أجزاء الغابة التي بإمكانهم الاحتفاظ بها لاستعمالها. هناك تمرد في الأفق. جنود قبائل، تمّ تسريحهم من صفوف القناصة، يعلمون متمردى المستقبل. نجحت السلطة الفرنسية من خنق هذه الحركة في المهد. غير أنّ القبائل يتجمعون ليهربوا من الاضطهاد. غادرت ثمانون عائلة منطقة المدية قاصدة تونس⁴⁰. أمر الوزير بالسماح لهم بالذهاب، لأنّ رحيلهم يوفّر مكانا للمعمّرين؛ غير أنّ جنرالاتنا ينظرون إلى ذلك على أنه أمر سيّئ.

في سنة 1864م حدث تمرد كبير في قلب البلاد، في عهد اضطرت فيه عمليات احتلال كوشنشين Cochinchine والمكسيك Mexique فرنسا إلى إعادة استدعاء الفرق العسكرية. قام زعماء الجنوب الكبار بتحريض السكان على التمرد بمساعدة الطرق. لقد جمعوا فرقة من الفرسان، منظمة بصفة جيدة وتخوض المعركة بمعرفة. إنّ التطرف الديني ليس وحده هو سبب هذا التمرد، والذي يمثل أكبر تمرد حدث منذ سنة 1845م. يعترف ماكماهون MacMahon بذلك في تقرير موجه للأميراطور: « إنّ التجاوزات المتتالية للاحتلال الأوروبي تسببت في اضطراب عميق أصاب مجتمع الأهالي، بحيث لم يتمكن إعلان المجلس الاستشاري من إزالته، والذي لم تُفهم حملته بعد من قبل السكان ». فالعائلات الكبيرة استشارت "مشاعر التحرر" فاتّبعهم الناس⁴¹. مُشأت القبائل Kabyles شاركوا في الردع، غير أن الصبايحية انسحبوا. يوسف Yusuf المُكلّف بالعمليات في الجنوب، أخذ العبرة من الأحداث: « يجب ألا نتعامل مع العرب بازدراء كما فعلنا سابقا وعلينا أن نختار بعناية كبيرة من نعيّنه عليهم من العاملين. منذ رحيلك، سيدي المارشال، لم يتم الانشغال بزعماء الأهالي؛ لم يتم اللقاء بهم في اجتماع من أجل أن نبين لهم رغبتنا وأن نبرهن لهم على مودّتنا⁴².... » ويقترح المملوك القديم العودة إلى النظام التركي: إنشاء قبائل مخزن تُمنح لها امتيازات، يقومون بحراسة الآخرين، على سبيل المثال الارباع، الذين مُنحت لهم أراضي أولاد شعيب [شعانبه] المتمردين. فقد حصل أنه بعد بضعة أسابيع، تخلّى الارباع عنّا !

خشينا في زمن سابق من تمرد منسق يقوم به القبائل Kabyles، الخاضعون منذ سبع سنين. إذا ما كان هؤلاء لم يتحركوا، يكون ذلك بسبب شعور مبدئي بالخطر. تمّ اجتماع في زاوية من أجل النقاش. أجابت الأغلبية: « لقد قاومنا جميعا معا الفرنسيين؛ اتفقنا على نفس الفكرة. كانت جهودنا بدون جدوى. لا

⁴⁰ Ibid., Martimprey au maréchal ministre de la Guerre, Alger, 17 avril 1860.

⁴¹ Guerre, H. min. Rapport de Mac-Mahon à l'empereur sur la révolte de 1864, Alger, 27 septembre 1864, Arch.

184.

⁴² Guerre, H 183. min. Yusuf au ministre, Zenina, 14 juin 1864, Arch.

نريد أن نحاول من جديد مثل هذه التجربة. كُنّا على الدوام متحاربين ومتنازعين؛ منذ أن قدم الفرنسيون عمّ السلام والرخاء في قرانا. تركنا الفرنسيون نمارس أعرافنا؛ سمحوا بحريّة التنقّل وحملوا نساءنا وتجاريتنا. عاملونا باستقامة. إن كُنّا مازلنا مغلوبين من طرفهم، سنرى أنّ قبضتهم تشدّ حولنا أكثر فأكثر وتضيّق علينا اليوم بقسوة. لا تنتظروا منّا اليوم إذن أن نحمل السلاح. لن نلتحق بكم إلّا إذا ما كان هناك مسعى أخير يُبدّل من أجل طردهم من البلاد⁴³ « الجملة الأخيرة تثير القلق.

بالرغم ممّا أثارته في أوساط المسلمين رسالة الإمبراطور حول المملكة العربيّة من ضجيج، يظلّ الحذر قائما. يعترف مارتيمبري Martiprey: « شارك السكّان الأهالي كلهم، بالمشاعر على الأقلّ، في مساعي المتطرّفين fanatiques في جنوب القطاع الوهراني. كادوا أن لا يعترفوا بالعناية التي حظوا بها من لدن حكومة الإمبراطور. تمنّوا أن ينجح التمرد. انتشرت بينهم سرّا الدعوة إلى حمل السلاح⁴⁴». وكان سخطه بلغ حدّا جعله يقترح نفي 1000 عائلة من إقليم وهران إلى السنيغال Sénégal أو كايان Cayenne، ومن 4 إلى 500 من الإقليميين الآخرين.

استغلّ ذلك المعمرّون لكي يحمّلوا مسؤوليّة الاضطرابات لسياسة حماية الأهالي التي حدّدها الإمبراطور بوضوح تامّ. طبع دوبري دو سان-مور شكوى مرفوعة ضدّ الجيش في 1000 نسخة، "عصبة مضادة لفرنسا"، حيث ذكر أنّ: « التحذيرات التي تنشرها الآن بعض الأصوات المتواطئة من أجل ضرب كلّ ما هو مدنيّ ردّ التهمة إلى هؤلاء المعمرين الذين أصبحوا يضايقون... » يبرهن على العكس من ذلك « لا بدّ من مغادرة البلد أو إقامة الأمن لعدد كبير من السكان الأوروبيين»⁴⁵.

IV- أزمة 1867م-1870م:

مرّت العاصفة، يبدو أنّ العرب انصاعوا للخضوع للاحتلال الفرنسيّ، الذي أراد الإمبراطور أن يحوّلّه إلى نوع من الحماية. ليست لدينا أيّة وثيقة تسمح لنا بأن نعرف مشاعرهم. إنه في فترة التآزّمت تتمّ مضاعفة التحريّات من أجل معرفة أسباب الأضرار التي لم يكن من الممكن توقّعها.

مع ذلك فإنّ أكبر أزمة اقتصادية عرفتّها الجزائر هي أزمة 1870م-1867م. عمّت جزءا من البلد مجاعة مُروّعة. ولأنّ المعمرين والعسكريين كانوا يتبادلون الاتهام فيما بينهم بخصوص مسؤوليّتهم على البؤس، تمكّننا من وثيقة تسمح لنا إلى حدّ ما بمعرفة ما تركته من آثار على السكان الذين عانوا منها.

في سنة 1866م، كان الجراد يلتهم الشعير والقمح إلى غاية الجذر، يعزّي الأشجار من ثمارها ومن أوراقها. في عزّ الصيف يتخذ السهل هيئة تبعث على الأسى. في القبائل لم يبق هناك زيتون، ولا تين. في سنة 1867م بلغ الجفاف درجة لم تعد تنبت فيها البذور. بسبب نقص الكلاء تموت قطعان الماشية من

⁴³ - Général de Neveu, commandant la subdivision de Dellys, au général commandant la division d'Alger, Dellys, 12 juin 1864, Arch

Guerre, H 183. min.

⁴⁴ - Martimprey au maréchal Randon, ministre de la Guerre, juil. 1864, Arch. Guerre, H 183. min.

⁴⁵ - Le préfet d'Oran au gouverneur général, 9 juin 1864, Arch. Guerre, H 183. min.

الجوع. أصاب الهزال الناس بفعل الحرمان، فأصبحوا عرضة للتيفوس والكوليرا. في سنة 1868م كان الجفاف أقلّ، غر أنّ زرع البذور كان غير كاف وكانت المجاعة مُرَوَّعة. كتب الجنرال لاكلوتيل Lacreteille في مذكرة: « قسم واسع من السكّان، أصبحوا في حالة الحيوانات المتوحشة لا يعتاشون إلا من الجذور والقاذورات ويتنازعون عليها حدّ الاقتتال، يُقْبَلُونَ على غذاء كريبه يوصلهم إلى آخر يوم في حياتهم من المعاناة والاحتضار... في إقليم وهران بلغ عدد الضحايا 100.000 نسمة، أي خمس السكان. آلاف الأشباح، الذين يكادون يسقطون، يجزّون أقدامهم جماعات جماعات في البلد فينشرون جميع الأمراض التي تمثّل موكبا اعتياديا ينبئ عن بؤس شديد. فقد نادي عمي موسى، الذي كان الأكثر عرضة للخطر، لوحده في ستة أشهر ثلاثة أرباع سكّانه...⁴⁶ ». ذكر عدد الجزائريين الذين توفّوا من الجوع 500.000 نسمة.

عانت مناطق بلاد القبائل Kabyles، التي كانت مسقية أحسن، أقلّ ممّا عانت مناطق الداخل. لكن أُرسِلَتْ لَهَا جُمُوعُ الْجُوعَى الذين كانوا يتجولون حول العاصمة، فَصَرَفَتْ مَدَّخَرَاتِهَا لتوفّر معاشا لهؤلاء المساكين. هكذا أسعفت القبائل الكبرى Grande Kabylie 12000 من العرب، الذين كان عليها أن تعيدهم في الربيع لبلدهم لكي تمنعهم من التهام الثمار قبل أن تنتضج. كان عليها أن تعير البذور للفلاحين لكي يتمكنوا من زرعها. بهذا خففت من البؤس في سنة 1869م.

ما هي علّة هذه الكارثة، التي تسببت في انخفاض ملحوظ للسكّان وفي آلام غير مسبوقّة ؟ أرجع المعمّرون المسؤوليّة لتهاون المكاتب العربيّة bureaux arabes وبيّنوا بأنّ المجاعة توسّعت خاصّة في المناطق التي كانت تديرها السلطة العسكريّة، بينما كان لدى الأوروبيين ما يضمن معاشهم، وقد أسعفوا الجياع. دافعت مكاتب العرب على رأي مخالف. فالعرب، في ما يقول الجنرال لاكلوتيل Lacreteille، غير قادرين على مقاومة الجفاف « لأنّ الاحتلال الأوروبي سلب منهم، إلى جانب الأراضي الأكثر خصبا، الاستفادة من المياه، وحتّى سُبُل الوصول إلى مجاري الماء. لأنّه، في الأراضي التي هُجِرُوا إليها، منابع المياه، التي لم تكن تكفي في الزمن العادي لسقي الماشية، جفّت في أغلبها وأصبحت حينئذ الاستعانة بالفلاحة ممنوعة بسبب نقص القمح. فلأنّ قطعان الماشية لا تجد ما تأكله ولا ما تشربه، نفقت جميعا تقريبا. وأخيرا لأنّه لم تكن هناك في القبائل لا صناعة، ولا تجارة، نقص في الحبوب، فَقَدَ لقطعان ماشيتهم، كلّ ذلك لم يترك لهم أيّ مصدر للعيش»⁴⁷. يلاحظ بأنّ منطقة القبائل Kabylie، التي تضررت قليلا من المجاعة، تنتمي للمنطقة العسكريّة. فإذا ما كان سكّان الجبال هؤلاء قد تمكنوا من درء الخطر، فلأنّ « العنصر الأوروبي الذي لم يدخل بينهم إلا قليلا لم ينزع منهم شيئا ».

⁴⁶ - Général Lacreteille, De l'Algérie au point de vue de la crise actuelle, Lyon, 1868, in -40, p. 48 sq.

⁴⁷ - Ibid., p. 36.

ويُلاحَظُ جنرال قطاع دَلَس من جهته، أنّه لو أنّ الأهالي كانوا في وضعيّة أفضل في مكان آخر، لطلبوا إلحاقهم بالمنطقة المدنيّة. ما حصل هو العكس. في سنة 1865م، لمّا مرّ الأمبراطور ببلادهم، ترجّوه بأن يتركهم في المنطقة العسكريّة، حيث يكون ثقل الضرائب أقلّ. في المنطقة المدنيّة، تكون للأوروبيين دائما على الأقلّ أغلبيّة الثلثين في المجالس البلديّة. أضف إلى ذلك أنّ البلديات تسعى لضمّ القبائل العربيّة، التي تدفع ضرائب تستعملها للفائدة الحصريّة لمراكز المعمرين. في إقليم مدينة الجزائر توفّر المنطقة العسكريّة مليونين من المداخل، توفر المنطقة المدنيّة 500.000 فرنك؛ بينما الأول لا يحصل إلّا على 300.000 فرنك من أجل نفقاته، بينما الثاني (بفضل المجلس العمومي المشكّل من المعمرين) يتوفّر على 2200.000 فرنك⁴⁸.

يتيح لنا هذا الجدل بأن نعرفه بصفة غير مباشرة مشاعر المسلمين. في الواقع، يؤكّد ما ذكرته المكاتب العربيّة بعض العرائض. في ماي 1860م، كان السمالّة قد كتبوا للوزير محتجّين بحدّة على مشروع يريد أن يلحقهم بالمنطقة المدنيّة: في مكتب العرب، كما يذكرون، ليس هناك إجراءات لا جدوى منها بخصوص القضايا؛ يتمّ عرض المسائل بدون مترجم ويحكم القاضي أثناء انعقاد الجلسة. لن يكون الحكم المدني سوى كارثة. « سيأكل رزقنا اليهود والمحامون، المحضرون القضائيون وسنظلّ كشجرة بدون ثمار⁴⁹ » من أجل التذكير بالخدمات التي قدّمتها باعتبارها مساعدة للجيش الفرنسيّ كتبت الدواير بدورها عريضة مشابهة: « كيف لنا أن ننقل لنصبح تابعين للحكومة المدنيّة، بمعونة اليهود والزنج⁵⁰؟ ».

كلّ ذلك يبيّن بأنّ العرب كانوا يهاجرون من المنطقة المدنيّة ليستقروا في المنطقة العسكريّة، بينما محافظو الأقاليم يؤكّدون بأنّ هناك حركة في الاتجاهين وبأنّ هذه العرائض الحادّة اللهجة حرّرتها في الحقيقة المكاتب العربيّة، التي كانت تمارس الضغط من أجل الحصول على التوقيعات. مع ذلك فإنّ عدد العرائض وتطابقها لافتة للأنظار⁵¹. أكثرها أهميّة تلك التي أرسلها أعيان القبائل المحيطة بالمدية ومليانة في أفريل 1870م. لاشكّ بأنها من إحياء السلطة العسكريّة⁵²، لكنها تقدّم بوضوح قدرا من التطلّعات تضطرنا لأن نعتبرها كوثيقة رئيسيّة عن الحالة الذهنيّة للمسلمين في نهاية الأمبراطوريّة الثانية.

تبدأ العريضة بالتذكير بالالتزامات التي تعهّدت بها الحكومة الفرنسيّة اتجاه العرب عند الغزو. تورد بيانا لبيجو، مؤرّخ في سنة 1844م، أين تعهّد الجنرال باحترام مؤسسات وديانة الجزائريّين، وبأنّ المكاتب العربيّة ستصير منذ ذلك الوقت الوسائط ما بين الحكومة والخاضعين للإدارة « هؤلاء الضبّاط يسهرون على الدوام على ما يفيّدنا، يبعدون عنا ما يضرّنا... لقد سلكوا معنا فعلا كما يسلك الأب، بكلّ عناية

⁴⁸ Le général commandant la subdivision de Dellys au général commandant la division d'Alger, Dellys, 19 avril

Guerre, H 190. min. 1870, Arch

⁴⁹ Nies, F80 1713 F. .Pétition de mai i860, Arch

⁵⁰ Ibid.

⁵¹ Et le rapport du préfet de Constantine au ministre, celle des Beni Mansour (Dellys) du 14 mars 1870. Ibid., cf

6 nov.1860.

⁵² nat, F80 1713 F. .Traduction du texte arabe d'une pétition adressée à Napoléon III en avril 1870, arch

وبحكمة، يحموننا ويعزفوننا بحقوق كلّ منا، يحترمون شخصيتنا وديننا وعاداتنا، يساندون شريعتنا، يشجعون العاملين في الإدارة ويعاقبونهم لكي يلتزموا بالنهج العادل والقيم. بفضل ذلك، أصبح عمال الإدارة من العرب يتعاملون وفق أخلاق وسلوك السلطات ويتبعونها كنهج جدير بالتتويه. نبّه رؤساء المكاتب العربيّة على جميع الأهالي كبارا وصغارا بأن يقصدوا المكاتب إن كانت لهم مطالب، مؤكّدين لهم بأنهم لن يتعرضوا للصّد من أيّ شخص، وبأنّ ذلك سيكون بدون مقابل...». وكان العرب راضين بذلك. يضيفون: « عدد كبير منّا قدّم بكلّ رغبة خدمة لفرنسا. هذا أمر واضح بالنسبة لجنابكم وضوح الشمس. نتوجّه على الدوام بالدعاء لله لكي ينصر الأمبراطوريّة وأن يقودها بهدايته لها ». لقد علموا بكلّ أسف بأنّه يرادّ لهم إلحاقهم بالسلطة المدنيّة. « لقد كلّفونا بمهمّة ثقيلة لا نقوى عليها وأهانونا بطريقة غير مقبولة، كما حدث للمسلمين الذين أصبحوا تحت إمرتهم والذين يبدو أنهم مثل الأموات تحت أقدام الأحياء... نحن نعاين التردّي الذي يعيشه إخواننا الخاضعين للسلطة المدنيّة؛ لقد استبّعوا عن كلّ مشاركة في السلطة وافتكّ منهم الإداريّون كلّ شيء. فقد تم على أيّ حال إخضاع إخواننا للجباية. لقد كانوا عرضة لأداء ضرائب غير عادلة ولمصاريف جائرة، تحمّلوها بفضل ما اعتادوا عليه بفضل التكافل فيما بينهم. كلّ ذلك كان نتيجة قلة الاعتبار التي يُنظرُ بها لكلام المسلمين. كلام المعمّرين مسموع، بينما كلام العرب مردود». ينكر محررو العريضة كونهم يرغبون في مجرّد مهاجمة المعمّرين على الدوام؛ فهم يعترفون بحقهم المشروع: « من بين هؤلاء المعمّرين اشترى عدد منهم منازل وأراضي. عن هؤلاء ليس هناك ما يُقال. لكن في أغلب الأحيان ما هو في حيازة المعمّرين سلب بطريقة غير شرعيّة من المسلمين وتمّ التنازل عنه لهؤلاء. لاشكّ في ذلك، وإذا ما كان جنابك يرغب في الحصول على معلومات، ستأكّد بأن ذلك حقيقة ساطعة، إذ أنّه ليس هناك من معمرٍ قدّم حاملا معه أرضه ومنزله. بإمكان الأمبراطور أن يلاحظ بأنّه في المنطقة التي يديرها الجيش، ظلّت الأراضي بين يدي مالكيها بفضل حماية السلطات التي حمت المسلمين ضدّ الهجمات... والتي لا تطالبنا إلّا بالضرائب التي تتعلق طبعا بعمل الزراعة طبقا لشرائعنا الدينيّة... نأمل في حمايتكم، نحن أبناؤكم... ». هاهي إذن مخاوف السكان المسلمين، ونتفهّم شعورهم لما قرّرت الحكومة إخضاع كلّ الجزائر للإدارة المدنيّة. لم يكن ذلك هو السبب الوحيد لتمرّد 1871م، لكنه بدون شكّ السبب الرئيسيّ. في جميع الأحوال لا يمكن اتهام القيادات العسكريّة بأنها لم تستشرف الأمر بوضوح. كتب الجنرال ديليني Dégigny، الذي قضى كلّ خدمته في إفريقيا، لِمَاك ماهون Mac-Mahon وهو يغادر البلاد في سنة 1869م: « من التجربة التي خضتها، أستنتج بأنّ مجتمع الأهالي هو على الدوام معاديا لنا وأنّ كلّ تنظيم يستند إلى عنصر الأهالي يعتمد على قاعدة غير مستقرّة. نحن نعاني من قصر النظر. لأنّه حولنا أهالي التّل خاضعون في الظاهر، ولعلّ ذلك مُجاملّة، لأنهم تعودوا التعامل مع معمرينا في بعض النقاط، ولأنّ رؤساء البلديات ونواب الإدارات البلديّة الريفيّة يبذلون ما في وسعهم من حسن المعاملة، لنتخيّل أن ذلك يمثّل أمرا حسنا ولنسر بجرأة أكثر نحو ما نسمّيه النقدّم. على العكس من ذلك، يتمثّل ضعفنا في ثقافتنا هذه. إنّها تقلّل من حذرنا وتعرّضنا لأخطاء كبيرة.

لكي يتمّ تبصّر الأشياء أحسن لابدّ من إعادة النظر واعتبار أنّ الجزائر نقطة عاتمة وسط العالم الإسلاميّ، بأنّها موصولة بالجنوب بـ 12 أو 15 مليون نسمة تربّوا وتغذّوا على كراهيّة المسيحيّ، حيث الأحقاد، التي لا تهدأ أبداً، تزداد من سنة لأخرى، والتي لا تفعل سوى أن تتربّص الفرصة لطردها من البلاد⁵³.

لسنا على يقين بأنه ليس هناك سوى التطرّف الدينيّ الذي يقف خلف ذهنية الثورة الكامنة. هناك أيضاً شعور وطنيّ مضطّر. أنكرت السلطة الفرنسيّة على الدوام وجوده، مدّعية بأنّ الجزائر لم توجد أبداً قبل الاحتلال الفرنسيّ، وبأنّها لم تتشكّل أبداً كدولة، وكوطن، وبأنّه ليس بإمكانها أن تؤسّس وطنيتها على موروث تاريخيّ. حتى أيّامنا هذه يتضايق مؤرّخو الجزائر من قول العكس. لو أنّ البحث عن الحقيقة كان منظمّاً ومُشجّعاً، لَمّا عانى الجمهور الفرنسيّ من إحباطات زمننا هذا.

أولاد يعيش - البلدية، بتاريخ: 2022/01/20

⁵³ - Guerre, min. Iye général Deligny au maréchal de Mac-Mahon, gouverneur général, Oran, 19 avril 1869, Arch H 189.